

أضواء البيان

@ 232 { وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُمْسِكُهُ بِرَحْمَتِهِ وَلَئِنْ لَّا تَفْقَهُ هُمْ }
تَسْبِيحَهُمْ } ، وقال تعالى : { وَإِنْ مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِّنَ مَّاءٍ إِلَّا يَشُقُّهُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِّنَ
مِنْهَاجٍ لَّمَّا يَهْدِيهِ لَكُمْ خَشْيَةً أَلَّا تُغْلَبُوا } ، وقال تعالى : { إِنْ زَلَّ عَرْضُكَ
الْأَبْصَارُ مَازَنَةً عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبْيَنَ أَنْ
يَحْمِلَهَا مَلَكُوتُهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا } . وقد ثبت في صحيح البخاري : أن الجذع الذي كان
يخطب عليه النبي صلى الله عليه وسلم لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حنين . وقد
ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم
عليّ قبل أن أُبعث . إني لأعرفه الآن) وأمثال هذا كثيرة . والقاعدة المقررة عند
العلماء : أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب
الرجوع إليه . والتسبيح في اللغة : الإبعاد عن السوء ، وفي اصطلاح الشرع : تنزيه الله جل
وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله . .

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجَبَالَ } أي
جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح والظاهر أن قوله { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } مؤكد
لقوله : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجَبَالَ } يُسَبِّحُونَ وَالطَّيْرُ { والموجب
لهذا التأكيد : أن تسخير الجبال وتسبيحها أمر عجب خارق العادة ، مظنة لأن يكذب به
الكفرة الجهلة . .

وقال الزمخشري { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } أي قادرين على أن نفعل هذا . وقيل : كنا نفعل
بالأنبياء مثل ذلك . وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط . لأن تأويل { وَكَذَّبَا
فَاعِلَيْنَ } بمعنى كنا قادرين بعيد ، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى . .
وقال أبو حيان { وَكَذَّبَا فَاعِلَيْنَ } أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال
وتسبيحهن ، والطير لمن نخصه بكرامتنا اه ، وأظهرها عندي هو ما تقدم ، والعلم عند الله
تعالى . وقوله تعالى : { وَعَلَّمَ دَاوُودَ صِنْعَهُ لَدَيْسَ لَكُمْ لَدَيْكُمْ } مِّنْ
بِأُوتِيَكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ } . الضمير في قوله { عَلَّمَ دَاوُودَ } راجع إلى
داود ، والمراد بصيغة اللبوس : صنعة الدروع ونسجها . والدليل على أن المراد باللبوس في
الآية الدروع : أنه أتبعه بقوله { لَدَيْكُمْ } مِّنْ بِأُوتِيَكُمْ أي لتحرز وتقي
بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف ، والرمي بالرمح والسهم ، كما هو

